﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

[المنافقون: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ مطلعِ السّورةِ لآخِرِ ما قبلها:

بَعْدَ ذِكْرِ الإعْراض عن الصّلاة شروعٌ بِفَضحِ النِّفاق

لمّا حَذَّر النَّظمُ الجليل في آخر سورة الجمعة مِن الإعراض عَن النَّبيِّ ﷺ وقتَ الصَّلاةِ - لأنّ الانشغالَ بالتِّجارة عَن الصَّلاةِ يُؤَدّي إلى التَّلَبُّس بصور النِّفاق - أتبَعَه في مفتتح هذه السّورة بتقبيح حالِ مَن أقبَل على مَجلِس النَّبيِّ ﷺ على حالِ النِّفاق، لأنَّه سيكون بذلك كاليهود الَّذين حُمّلوا التّوراة ثمّ تقاعسوا عنها وتخلَّوا عن تعاليمها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: (نفق) أصلٌ يَدُلُّ على إخفاء شَيءٍ وإغماضِه، والنَّفَقُ: الطَّريقُ النّافذُ، وهو: سَرَبٌ في الأرضِ له مَخلَصٌ إلى مكان[2]. ومنه اشتقاق النِّفاق؛ لأنَّ صاحبه يكتم خلافَ ما يُظهِر، فكأنّ الإيمان يَخرُج منه، أو يَخرُج هو مِن الإيمان في خفاء[3]. أو هو الدّخولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من بابٍ، وعلى ذلك نبَّه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67] أي: الخارجون مِن الشَّرْعِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 74.
(2) الخليل، العين: (نفق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفق).
(4) الرّاغب، المفردات: (نفق).

2) ﴿نَشْهَدُ﴾: (شهد) أصلٌ يدُلُّ على حضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ[1]، والشَّهادةُ خَبرٌ قاطعٌ، تقول منه: شَهِد الرَّجُلُ على كذا، ورُبَّما قالوا شهْدَ الرَّجُل بسكون الهاء للتَّخفيف[2]، وقولهم: اشهدْ بكذا، أي احلفْ[3]. والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، والشَّهادَةُ: قولٌ صادِرٌ عَن عِلمٍ حَصَلَ بمشاهدة بصيرةٍ أو بَصَرٍ[4]. وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾ [آل عمران: 70] أي: (تَعلَمون)[5]. والمراد به في الآية الكريمة: الإخبارُ عَن عِلمٍ بمشاهدةٍ وحُضورٍ واطِّلاعٍ[6].

3) ﴿جُنَّةً﴾: (جنن) أصلٌ يدلُّ على السَّتر والتَّستُّر. جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنّاً: سَتَره. وكلُّ شَيْءٍ سُتر عَنْكَ فَقَدْ جُنَّ عَنْكَ[7]. والجُنَّةُ: الدِّرع، وكُلُّ ما وقاك فهو جُنَّتُك[8]. والسِّلاحُ ما قوتل به، والجُنَّةُ ما اتُّقي به[9]. والجَنان: القَلبُ،؛ لكونه مستورًا عن الحاسَّة؛ والمِجَنُّ والمِجَنَّة: التُّرس الَّذي يَجُنُّ صاحبَه. قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ [المجادلة: 16][10]. والمراد به في الآية الكريمة: سترةٌ ووقايةٌ[11].

4) ﴿فَصَدُّواْ﴾: (صدد) أصلٌ يدلُّ على إعراضٍ وعدولٍ[12]. وصَدَدتُه عن كذا أَصُدُّه صَدًّا، أي: عَدَلْتُه عنه وصَدَدْتُ عنه بنفسي صُدودًا[13]. ويقال صَدَّه عَن الأمر يَصُدُّه صَدًّا: مَنَعَه وصَرَفَه عنه[14]. الصُّدودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾، [النساء: 61]، وقد يكون صَرْفًا ومَنْعًا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (شهد).
(4) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شهد).
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 214.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(8) الخليل، العين: (جنّ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنّ).
(10) الرّاغب، المفردات: (جنّ).
(11) القنُّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدّ).
(13) الخليل، العين: (صدّ).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).

ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24][1]، والمراد به في الآية الكريمة: منعوا الناس عن الإيمان[2].

5) ﴿سَآءَ﴾: (سوأ) أصلٌ يَدُلُّ على القُبْحِ. ساءَهُ يَسوءُه سَوْءًا وسوءًا: فَعَلَ بِهِ ما يَكْرَهُ، نَقيضُ سَرَّه[3]. والسّوءُ: كلّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمور الدُّنيويَّة، والأُخرويَّة. والسَّيِّئَةُ: الفِعلة القبيحة، وهي ضِدُّ الحَسَنَة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81][4]. وساءَه كَذا، وأَسَأتُ إلى فلانٍ، أي أدخلتُ عليه السّوء. وساء يكون قاصرًا إذا كان للذَّمِّ (بمعنى بِئْس)، كقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ [الأعراف: 177][5]، وهو المراد هنا.

6) ﴿فَطُبِعَ﴾: (طبع) أصلٌ يدلُّ على نهايةٍ ينتهي إليها الشَّيءُ حتّى يُخْتَمَ عندها، يقال: طبعتُ على الشَّيء طابعًا. وطَبْعُ الإنسانِ سجيَّتُه. والطَّبْعُ: الخَتْمُ على الشَّيءِ[6]، وهو التَّأثيرُ في الطّين ونحوه[7]. والطَّبْعُ: التَّغطيةُ على الشَّيءِ والاستيثاقِ مِن أن يَدخُلَه شَيءٌ[8]. ومِن ذلك طَبعُ اللهِ على قَلبِ الكافر، كأنَّه خَتَم عليه حَتَّى لا يَصِلَ إليه هُدًى ولا نورٌ، فلا يوَفَّقُ لِخَيرٍ[9]، والمراد به في الآية الكريمة: التَّغطيةُ على قلوبهم[10].

7) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: (فقه) أَصْلٌ يَدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعِلمِ به[11]. وفَقِهَ يَفْقَهُ فِقْهًا إذا فَهِمَ. وأفقهتُه: بَيَّنْتُ لهُ[12]. والفِقْهُ: العِلْمُ بِالشَّيءِ والفَهْمُ لَهُ[13]. وهو التَّوَصُّلُ إلى عِلمِ غائبٍ بِعِلمِ شاهِدٍ، فَهو أَخَصُّ مِن العِلمِ. قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النساء: 78]. والمراد به في الآية الكريمة: (لا يَفْهَمون)[14].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 275.
(3) ابن منظور، اللّسان: (سوأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(6) الخليل، العين: (طبع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (طبع).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طبع).
(10) الواحديّ، البسيط: 21/ 469.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(12) الخليل، العين: (فقه).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(14) الواحديّ، البسيط: 21/ 469.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أوصافُ المنافقين غايةٌ في الشَّناعة والسّوء

يكشِفُ النَّظمُ الجليلُ شيئًا مِن صِفات المنافقين وسلوكِهم؛ فَهُم عند حضورِهم مَجلِسَ النَّبيِّ ﷺ يتظاهرون بالإيمان، قائلين بألسنتهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وإنّ الله يعلم إنّه لرسولُ الله، وهذا حقٌّ، ولكنَّ الله تعالى يَشهَد إنّ المنافقين لكاذبون في ادّعاءهم الإيمانَ وفيما أظهروه مِن شهادتهم، فَهُم أعلنوا الإيمانَ وأسَرّوا الكُفرَ، وأقسموا على ذلك بألسنتهم، وإنّهم إنّما حَلَفوا على ذلك لأنّهم أرادوا مِن أيمانِهم أنْ تكونَ لَهم وِقايةً مِن القَتلِ والمؤاخذةِ والعذاب، ومَنَعوا أنفُسَهم وغَيرَهم عَن الإيمان بالله، إنّهم ساء ما كانوا يعملون؛ ذلك لأنَّهم آمنوا في الظّاهر، ثمّ كفروا في الباطن، فعاقَبَهم اللهُ بأنْ خَتَم على قلوبهم بسبب كُفرِهم، فَهُم لا يفهمون ما فيه صلاحهم وما فيه الخيرُ لهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاستهلال بالجملة الشَّرطيّة:

فَضحُ المنافقين بأسلوبٍ بَلاغيٍّ يلفت الانتباه:

افتتح النّظمُ الكريمُ السّورةَ بِجُملةٍ شَرطيَّةٍ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إيذانًا بأنَّ مضمونَ الكلام مُتكرِّرُ الحدوث، كما أنّ أداةَ الشَّرط تَدُلُّ على التَّوقُّع والتَّشويقِ مِمّا يَجعَلُ السّامِعَ مُتطَلِّعًا لسماعِ ما يأتي بعد، فَهو استهلالٌ لِفَضحِ المنافقين بأسلوبٍ بَلاغيٍّ مُشَوِّقٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

إظهارُ الإيمان وإبطان الكفرِ سُلوكٌ مُحَقَّقٌ في المنافقين

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بأداةِ الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وذلك لأنّ (إذا) تَدُلُّ على تحقُّق الوقوع، بخلاف (إن) التي تَدُلُّ على الاحتمال[2]. وهذا يَدُلُّ على أنّ

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 554.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الزّيّ الجامع: 28/ 85.

مجيء المنافقين إلى النَّبيِّ ﷺ كان متكرّرًا ومتيقّنًا، لا نادرًا، فالآية تُشير إلى اعتيادهم هذا النّفاق؛ وفيها دلالةٌ على حُسنِ خُلُقِه في التَّعامل مع المنافقين، فَلَم يكن يَطرُدُهم مِن مجلسه، رغم كثرةِ تردُّدِهم إليه.

دلالةُ التَّعبير بالمجيء مادّةً وصيغةً:

نفاقُ المنافقين صِفَةٌ راسِخَةٌ فيهم تَتَجدَّدُ في تعامُلِهم مع رسول الله

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمجيء في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ دون الحضور لوصفِ الحالَةِ التي يكونون عليها عند ذهابهم إلى مَجلِسه ﷺ مِن الثِّقَل والكراهة وعَدَمِ الطّاعة؛ بخلاف الحضور فإنَّه يَحمِلُ معنى الحِرصِ على سماعِ ما يُقال وفهمِه، وليس هذا مِن شَأنِ المنافقين؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالمجيءِ دون الحضور.

كما آثر التَّعبيرَ بالمجيء دون الإتيان لأنَّ المجيءَ فيه صعوبةٌ ومشَقَّةٌ، فَهُم يأتون متثاقلين كارهين، أمّا الإتيان ففيه معنى السّهولة واليُسر، وهو يناسب المُطيعَ الرّاغب، فالمنافقون يأتون النَّبيَّ ﷺ كارهين، أو يخافون أن يَظهَرَ نِفاقُهم أمامَ النّاس[1]، وهذا تصويرٌ بليغٌ لسلوك المنافقين.

وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل الماضي ﴿جَآءَكَ﴾ دون المضارع مع أنّ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبل مِن الزَّمان[2]، وذلك للدِّلالة على أنَّ مجيئَهم مُتَكَرِّرٌ، وهذا مِن باب تصويرِ المستقبل بصورة الماضي لِتَحقُّق الوقوع وتأكيدِه في ذِهنِ السّامع.

دلالةُ كاف الخطاب في قوله ﴿جَآءَكَ﴾ مَعَ سِرِّ التَّقديم:

جاء التَّعبيرُ بكاف الخطاب في قوله: ﴿جَآءَكَ﴾ مِن باب تشريف النَّبيِّ وتكريمه، وقُدِّم المفعول على الفاعل لبيان مَحَلِّ العناية والاهتمام؛ ولأنَّ أهلَ النِّفاق ليسوا مَحَلًّا للتَّقديم.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 715.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنِّفاق مادَّةً وصيغَةً:

المـــخـــادِعُ ذو الوجهين عريقٌ في الكذب

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالنِّفاق في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ تعبيرًا عن إظهارهم الإيمانَ وكتمانهم الكُفرَ[1]، تشبيهًا لهم بنَفَق اليربوع، وهو حيوانٌ يحفر لِنفْسِه نفقًا في الأرض له بابان أو أكثر، إنْ ترصّده أحدٌ عند أحدهما يخرج مِن الثّاني، كالمنافق له وجهان[2]. فاللّفظُ يبيِّنُ سلوكَهم القبيحَ في الخداع.

وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ولم يَرِد التَّعبيرُ بصيغة (الَّذين نافقوا) كما في سورة آل عمران؛ للدِّلالة على عراقتهم بالنِّفاق[3] ولأنَّ النِّفاق صار عَلَماً عليهم فأصبحوا يُعرَفون بهذا الوصفِ، فلا ينفكّون عنه ولا ينفكُّ عنهم؛ بخلاف التَّعبير بـ(الَّذين نافقوا)؛ فإنَّه يَدُلُّ على أنَّهم شَرعوا في أعمال النِّفاق في غزوة أُحُدٍ؛ فهذا بيانٌ لِما وقَع مِنهم؛ أمّا هنا فهو حُكمٌ عليهم بثبوت الصِّفة.

دلالةُ التَّعبير بالجَمعِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾:

تحقيرٌ لِشأنِهم وإشـــارةٌ إلى جُبْنِهم

جاءَ التَّعبيرُ بالجمع ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ولم يَرِد بالمُفرد (منافق) في القرآن كلِّه، بخلاف (الكافر) و(الكفّار) مثلًا، وهذا أمرٌ ينبغي الالتفاتُ إليه في تعبيرات القرآن الكريم؛ للدِّلالة على أنَّهم يتواطؤون فيما بينهم ويُسِرّون فيما بينهم؛ فلا يعيشون إلّا بصفة الجُبن مجتمعين؛ لذلك كان التَّعبير بصيغة الجمع دون المفرد.

وبالنَّظَر إلى سبب النُّزول فإنّ الآيةَ نزلت في عبد الله بن أبيٍّ لمّا قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ومع ذلك جاء التَّعبير بصيغة الجمع دون المفرد لتَجَنُّبِ التَّصريح بِذِكرِ المقصود بالنِّفاق على طريقة قول النَّبيِّ ﷺ «ما بالُ أقوام»[4]

(1) القنُّوجيّ، فتح البيان: 14/ 145.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 74.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 234.

نكتةُ التَّعبيرِ بالقول مادَّةً وصيغَةً:

ادّعاءُ المنافقين الإيمانَ بالقول دون مواطأة القلب

عبّرَ النَّظمُ الجليل بفعل القول في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للدِّلالة على أنَّهم يقولون ذلك بألسنتِهم دون أن يواطئ قلوبهم[1]، فأقوالهم لا تتجاوز ألسنتهم. فهم خَلَوا مِن الإيمان ودَأبوا على التَّمويه والادِّعاء.

وجاء بصيغة الماضي ﴿قَالُوا۟﴾ دون المضارع (يقولون) للدِّلالة على تحقُّقِ هذه المقولة مِنهم، وأنَّها صارت راسخةً في طبيعة تَعاملهم مَعَ رسولِ الله ﷺ.

دلالةُ التّعبير بـ﴿نَشْهَدُ﴾ مادّةً وصيغةً:

ادّعاءُ الإيمانِ بتأكيدِ الشّهادة

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبير بالفعل ﴿نَشْهَدُ﴾ حكايةً عن المنافقين في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للدّلالة على تأكيدهم على إيمانهم، فالشّهادةُ هي خبرٌ مُؤَكَّدٌ؛ لأنّها مشتقَّةٌ مِن المشاهدة، وهي أقوى طُرُقِ العِلم والمعرفة[2]، فهو فِعلٌ دالٌّ على تأكيد ما يُعلنونه ويُخبرون به، وذلك لتأكيد إيمانهم وأنّهم صادقون بانتسابهم إلى الإسلام.

وجاء بصيغة المضارع ﴿نَشْهَدُ﴾ للدِّلالة على تجدُّد هذه الشَّهادة منهم لدفع التُّهَم عن أنفُسِهم مِن غير أن يُطلب مِنهم أو أن يُستدعوا للشَّهادة، ولكنَّه مِن باب: (كاد المُريبُ أن يقول خذوني).

نُكتةُ العدول عن العلم إلى الشّهادة:

تأكيدُ القولِ وإيهامُ السّامعين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالشَّهادة دون العلم في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم أرادوا تأكيد قولهم، فإنّ الشّهادة بمنزلة اليمين، فكأنّهم قالوا: نُقسم[3].

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 234.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 74.

ولأنَّ الشَّهادة تَجمَعُ مَع الإقرار العِلمَ؛ فهي قولٌ صادِرٌ عَن علمٍ حَصَلَ بمشاهدة بصيرةٍ أو بَصَرٍ؛ فالشَّهادةُ أعَمُّ؛ لأنَّ الذي يشهَد يعلَم، أمّا إذا لا يعلمُ فهو لا يشهد، ولأنَّ الذى يعلم ليس بالضّرورة أن يكون شاهداً حاضراً؛ لذلك كلِّه عُبِّر بقوله: ﴿نَشۡهَدُ﴾ دون (نعلم).

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في الجملة:

أكَّدَ النَّظمُ الجَليلُ قولَه جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ بتتابع المؤكِّدات فَجَمَعَ بَين كَونِها اسميَّةً و(إنّ) واللّام؛ وذلك للدِّلالة على أنّهم أرادوا تأكيدَ قولِهم ذلك، وأنّه صادِرٌ عَن صميم قلوبهم؛ كأنَّهم قالوا: (إنّنا نشهد عن صميم قلوبنا بأنّك رسولُ الله)[1].

محاولةٌ سَترِ كَذِبهم باستخدام المؤكِّدات

وفى هذا كلِّه ما يَدُلُّ على أنَّهم كاذبون منافقون؛ لأنَّ المؤمنَ الحقيقيَّ لا يحتاج إلى أنْ يُحمِّلَ نَفْسَه في كُلِّ وقتٍ مِن الأوقات التَّوكيدَ على إعلان إيمانه، إنَّما يفعل ذلك مَن هو مُتَّهَمٌ في إيمانه كالمنافقين.

سِرُّ التَّعبير بلفظ الرَّسول مَعَ دلالة إضافته إلى لفظ اسم الجلالة:

جاء التَّعبيرُ بِلَفظ الرَّسول دون لفظ النَّبيِّ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ مِن باب مبالغة المنافقين في سَتر كَذِبهم فَكَأنَهَّم يوهمون مَن يَسمَعُ قَولهم بأنَّهم يؤمنون به حقًّا؛ لأنَّ مقام الرَّسول أعظمُ مِن مقام النَّبيِّ؛ فكان قولهم هذا لِتبرئة أنفُسِهم مِن تُهمة النِّفاق، وتأكيد إيمانهم برسالة الإسلام الَّتي يوحي بها لفظ الرَّسول، وأُضيف لفظُ الرّسول إلى اسم الجلالة لتقوية ادّعاءهم وتمويه كذبهم بجعل اعترافهم موَثَّقًا بنسبة الرّسول إلى الله تعالى.

النّسبةُ إلى الله تعالى تقويةٌ للادّعاءِ وتمويهٌ للنِّفاقِ

دلالةُ الواو في صدر الجملة وأثرُها الدّلالي:

افتَتح النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ

اعتراضُ الكلام لِدَفعِ الوَهم والاحتراس مِن الزَّلل

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 423.

﴿يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ وهي هنا اعتراضيَّةٌ، وجيء بالجملة المعترضة بين قول المنافقين وبين الإخبار عن تكذيبهم دفعًا للوهم[1]؛ إذ لو لم يذكرْه لَتَوَهَّم السّامِعُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ يَشمَلُ مضمون قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيكون تكذيبًا للرّسالة، فاعترض بالجملة ليدفعَ هذا الوهم ويحترسَ مِن نسبة التَّكذيب إلى رسالة النَّبيِّ ﷺ[2].

نُكتةُ تقديم المُسند إليه على المُسند الفعليّ:

تقديمُ الذّاتِ العليّة تأكيدٌ للحقيقةِ

قَدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المسنَد إليه - وهو لفظ اسم الجلالة - على المسند الفعليِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، فاللّه تعالى بجلاله وعَظَمته هو الَّذي حكم بذلك وشهد به، فَعِلمُ اللّه وشهادتُه لا يضاهيها شيءٌ في التَّأكيد[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ دون (يشهد):

عِلمُه سبحانه عِلْمٌ مُحيطٌ متجدِّدٌ لا يزول

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفِعل المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ دون أن يقول (يشهد) مثلًا؛ لأنَّ الَّذي يَشهَد هو يَعلَمُ، فهو يشهَدُ عن حضور ومشاهدة، أمّا من يعلم فلا يشترط فيه الحضور والمشاهدة، فهو إخبارٌ عَن قوَّة العِلم[4]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، فعِلمُ اللّه تعالى برسالة النَّبيِّ ﷺ دائِمٌ ومستمِرٌّ لا يتغيَّرُ ولا يزول.

دلالةُ تَأكيد الجُملة الخَبَريَّة:

تأكيدُ الرّسالةِ وفضحُ النِّفاقِ

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ ليُثبِتَ رسالة النَّبيِّ ﷺ ثُبوتًا لا يَقبَلُ الشَّكَّ، فالتَّأكيدُ للرَّدِّ على إنكارِ المنافقين، فمعَ أنَّهم نَطَقوا بالشَّهادة، إلّا أنّ الإيمانَ لم يواطِئْ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 425.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 377.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 75.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

قلوبَهم، لذا جاء التَّأكيدُ ليَكشِفَ كَذِبَهُم، ويُثبِتَ الرِّسالة، فسواء شهدوا أو لم يشهدوا فالرّسالةُ حقٌّ لا تحتاج إلى شهادتهم[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾:

إدمـاغُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ

تظهَرُ بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ في ردِّ الله تعالى عليهم شهادتَهم تلك وإن كانت تُعَبِّر عَن الصِّدق لأنَّها خَرَجَت مِن أفواهٍ لا تقول إلّا الزّور مِن القول؛ لذلك جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليُقيم مكانَ قولِهم الزّائِف قَولَةَ الحَقِّ مِن الحَقِّ سبحانه، ولهذا أيضاً وقَعَ التَّطابُقُ اللَّفظيُّ بَين قَولِهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ وقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ من باب ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: 18][2]

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

فـضـحُ كَـذِب المنافقين وكَشْفُ زيفِهم

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قَولَه جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ على قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ﴾ كَشْفًا لِكَذِبهم، وإعلامًا للنَّبيِّ ﷺ بِشَأنِهم[3].

نُكتَةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المسند الفعليّ:

تأكيدُ مضمون الخطاب وتقويةُ الحكم

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المُسنَدَ إليه وهو لفظ اسم الجلالة على المُسنَدِ الفِعليِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، وتقويةً للحُكم. فالله تعالى هو الذي يُخبِر عن عِلمِه بِكَذِبهم وزَيفِهم[4].

فائدةُ الإظهارِ في موضع الإضمار لِلَفظِ لاسم الجلالة:

عِـظَـمُ الشّاهد للقطع بالمشهود به

وضَعَ النَّظمُ الجليلُ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمَر في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فَأظهرَ الاسمَ الجليل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 75.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 10/ 956.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 234 - 235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.

دون الاكتفاء بالضَّمير؛ وذلك لتأكيد مضمون الخطاب، فاللّهُ تعالى المحيط بجميع صفات الكمال هو الَّذي يشهد على كَذِبهم[1]. كما أنَّ وضع الاسم الظّاهر موضع المضمر فيه تكرارٌ لاسم الجلالة مِمّا يُضفي هَيبَةً وجلالَةً وتأكيدًا لمضامينِ الخِطاب.

بلاغةُ المُشاكَلةِ في الآية:

تكذيبُ القول على وجه الكفاية

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَشْهَدُ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ليكونَ مقابَلَةً ومشاكَلَةً لقولهم: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فيكون تكذيبُ الله تعالى لهم وإبطالُه لقولهم مساويًا لِخَبَرِهم وقَولِهم[2]. وهذا مِن جماليّات التَّعبير القرآنيّ.

دلالةُ التَّعبير بالفِعلِ ﴿يَشْهَدُ﴾ مادّةً وصيغةً:

شهادةٌ دائمةٌ لفضح كَذِبهم المستمرِّ

عَبَّر النَّظمُ الجَليلُ بالفعل ﴿يَشْهَدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنّها هي الشَّهادة الحقيقيَّة لا ما يزعمه المنافقون؛ فإنّ الشَّهادة تَتَضَمَّنُ شيئين: صِدقَ مضمون الخبر، والإذعانَ له؛ فَصَدَّقَهم الله في الأوَّل (إثبات الرّسالة) وكَذَّبَهم في الثّاني (طاعة الرَّسول)، فصارو بنفاقهم أسفَلَ حالاً مِن اليهود.[3]

وعبَّرَ عن الشَّهادة بالفعل المضارع ﴿يَشْهَدُ﴾ للدّلالة على استمرار شهادته تعالى عليهم بالكَذِب، فهي شهادةٌ لا تزول، وهذا يقتضي أنَّ كَذِبَهم دائمٌ مستمرٌّ.

نُكتةُ تأكيد قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تأكيدُ النِّفاقِ وتبيينُ الشَّهادة

أكَّد النَّظمُ الجليلُ الجُملَةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لتأكيد نِفاقِهم وكَذِبهم، وذلك لأنّهم عرضوا شهادتهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 606.

بطريقة التّأكيد فجاء تكذيبُهم بأسلوبٍ يُبطِلُ ادِّعاءَهم ويُثبِتُ كَذِبَهم، وفي هذا تحذيرٌ للنَّبيِّ ﷺ والمسلمين مَعَه مِن هذه الطّائفة ليَحذروهم ويختبروا أحوالَهم؛ لأنَّهم كانوا مبثوثين ومنتشرين في المجتمع الإسلاميِّ.(1)

دلالةُ التَّعبير بالإظهار موضعَ الإضمار:

الـذمّ بالصّفةِ وتعليلُ التَّكذيبِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ أن يُعَبِّرَ بالاسم الظّاهر ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فلم يقل: (يشهد إنّهم لكاذبون)؛ وذلك لإظهار صِفَتهم المذمومة، ولبيان عِلَّة الحكم، فكذبُهم إنَّما هو بسبب كونِهم منافقين(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالكذب مادَّةً وصيغةً:

مخالفةُ القولِ للواقعِ، والتَّلازُمُ بين النِّفاق والكَذِب

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الكذب في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ للدِّلالة على أنَّ كلامَهم يُخالف الواقع، فَهُم كاذبون في إخبارهم عن شهادتهم برسالة النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّه خَبَرٌ يُخالِف ما في أنفُسِهم ومُعتَقَدِهم؛ وبهذا الاختلاف صاروا منافقين(3)، وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل دون الفعل للدِّلالة على عَراقَتِهم بالكَذِب وثبوتِ الوَصْفِ بهم.

بلاغةُ حَذفِ مُتَعَلَّق الكَذب:

كـذبُ المنافقين عـامٌّ لا يختصُّ بحالٍ

حذَفَ النَّظمُ الجليل مُتَعَلَّقَ الكَذِب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ اكتفاءً بدلالة السّياق، فَهُم كاذبون في شهادتهم برسالة النَّبيِّ ﷺ، وفي صدق اعتقادهم(4). كما أنّهم قد دَأبوا على الكَذِب حَتَّى صار في عامّة كلامهم، فَكَذِبُهم عامٌّ لا يختصُّ بحالٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.

نُكتةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

كشفُ الدّافعِ الخفيِّ للكذب

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ سيقت للجواب عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ يُثار في ذِهن السّامع بعد تكذيب الله تعالى للمنافقين في شهادتهم برسالة النَّبيِّ ﷺ، فَكَأنَّه قيل: لماذا نَطَقوا بالشَّهادة إذا كانوا كاذبين؟ فقيل إنَّهم اتَّخذوها تَقيَّةً ودِرعًا يَتَّقون به المؤمنين، ويُخفون وراءه كُفرَهم ونِفاقَهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ مادَّةً وصيغَةً:

سترُ الكُفرِ بالكَذِبِ تقيَّةً

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِفعلِ الاتِّخاذ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ للدِّلالة على أنَّهُم صَيَّروا الأيمان والشَّهادة دِرعًا للاتّقاء، وجعلوه تغطيةً لِكُفرِهم[3]، وقد جاء التَّعبيرُ بصيغة الافتعال للدِّلالة على تَكَلُّفِهم وتَصَنُّعِهم، وعلى بذلِ الجُهد في التَّخفّي وراء هذه الأيمان، كَأنَّهم حازوا شيئاً يستترون وراءه، ويَدُلُّ ذلك على أنَّ الأيمانَ لم تَصدُر مِنهُم عفويًّا، بل صاغوها عَمدًا وتَكَلُّفًا، وبعِلمِهم أنَّ ما يفعلونه خارِجٌ عَن الحقيقة والطَّبيعة.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير عن شهادتهم بالأيمان:

جعلوا الشَّهادة المُؤَكَّدة في قوّة اليمين

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ مجازًا عن شهادتهم، إذ لم تكن شهادتُهم يمينًا صريحَةً، لكنَّها بَلَغَت في تَكَلُّفِها حَدَّ القَسَم، فصارت في قوّة اليمين. وهذا مجازٌ مُرسلٌ بِجامع التَّوكيد، وفيه كشفٌ لِتَمويهِهم، حيثُ زَيَّنوا كَذِبَهم بظاهر التَّوكيد، فاتَّخذوه سترًا يخدعون به النّاس، قال الطّيبيُّ: "أي: اتَّخذوا شهادتهم تلك سُترةً

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 86.

سَتَروا بها ما أخفَوه في أنفُسهم، وخافوا أن يَظهَر أثرُه، وفيه إشعارٌ بأنَّ وكادَتَهم لتلك الشَّهادة بلغت مبلغ الحَلِفِ والأيمان، فإذن لا يُسمَّى كلُّ شهادةٍ يمينًا"[1].

دلالةُ الجمع والإضافة في ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾:

الإكثارُ مِن الشَّهادة، تمويهًا وخِداعًا

جاء التَّعبيرُ بالجمع في لفظ ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ للدِّلالة على أنَّهم يبالغون في التَّستُّر، كَأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهم يَحلِفُ هذا اليمينَ ويَشهَدُ هذه الشَّهادَةَ على أنَّه رسولُ الله، وهذا جزءٌ مِن تصوير حالة الخداع عند المنافقين؛ يُؤَكِّد هذا الإضافةُ في قوله: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ المفيدةُ للتَّعريف، حيث جعلوها وحدها سبيلَ النَّجاة في زعمهم، ودليلَ البراءة مِمّا قد يوَجَّهُ إليهم مِن التُّهَم.

بلاغةُ التّشبيه في قوله: ﴿جُنَّةٗ﴾:

تَترُّس المنافق بِدِرع الكَذِب والخِداع

شَبَّه النَّظمُ الكريمُ الأيمانَ بالجُنَّة في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو تشبيهٌ بليغٌ؛ حُذِفَت أداةُ التَّشبيه ووَجْهُ الشَّبَه؛ للدِّلالة على قوَّة الشَّبه بينهما؛ إذ جعلوا أيمانهم وقايةً يتّقون بها انكشافَ نفاقهم كما يُتَّقَى بالتُّرس في القِتال[2].

وقد آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ﴿جُنَّةٗ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ دون (وقاية)؛ لأنَّها أخَصُّ؛ فأصلُ (الجَنِّ) سَترُ الشّيء عَن الحاسَّة، ويُقال: (جَنَّه اللَّيلُ وأجَنَّه) سَتَرَه، والمِجَنُّ: التُّرس الذي يَجُنُّ صاحِبَه؛ فجاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بهذه المادَّة الدّالَّة على شدّة السّتر موافقةً لسترهم الكُفرَ ومحاولة إخفائه، فناسب التَّعبيرُ بهذا اللَّفظ مواطَأةً لِفعلِهم؛ بخلاف الوقاية فإنّها تُطلَق على كُلِّ ما يقي الشَّيءَ ويحفَظُه، وهذا غيرُ مرادٍ في هذا السّياق[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 427.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات القرآن: (جنن، وقي).

وقيل بأنَّ الجُنَّة مخصوصةٌ بالوقاية مِن المكاره الدُّنيَويَّة؛ فَهُم يَتَسَتَّرون بها ليصونوا دماءهم وأموالهم مِن القتل والأخذ.[1]

نُكتةُ تنكير ﴿جُنَّةً﴾:

جُنَّةٌ موهومَةٌ لا يُعَوَّلُ عليها

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بتنكير لفظ ﴿جُنَّةً﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ تحقيرًا وتقليلًا لشأن هذا الاتّقاء، فهي ليست جُنّةً حقيقيَّةً، بل وقايةٌ زائفةٌ لا تدفَعُ ضُرًّا ولا تَكتُمُ الحقيقة، فجاء التّنكير تعبيرًا عن كونها جُنَّةً موهومةً لا يُعوَّل عليها كما يزعمون ويعتقدون.

دلالةُ الفاء في قوله ﴿فَصَدُّواْ﴾:

تفريعٌ لبيانِ عِلَّةِ الصَّدِّ وأصلِه

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفاء في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهي هنا دالَّةٌ على السَّبَبيَّة، فقد صَدّوا النّاسَ عن الإيمان بسبب ما يصدُرُ مِنهم مِن التَّشكيك، والقَدْحِ في النّبوّة[2]، كما أنَّها فَرَّعَت الصَّدَّ عن سبيل الله على الحلف الكاذب، فَرَبَطَت ما بعدها بما قبلها على وجه النَّتيجة والمآل. فبسبب اتِّخاذهم الأيمانَ جُنَّةً، تَرَتَّب عليه الصَّدُّ عن سبيل الله[3].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَصَدُّواْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

منعُ النّاس وصَرفُهم عن سبيلِ اللهِ غايةُ المنافقين

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بالصَّدِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ دون المنع؛ لأنَّ الصَّدَّ أشَدُّ المنع، فإنَّه مأخوذٌ مِن مادَّةِ (صدد) الدّالَّة على اعتراضٍ بقَويٍّ أو كثيفٍ يَرُدُّ المُقبل أو يمنعه كالجبل؛ والمنافقون يحولون بين النّاس والأعمال الصّالحة؛ فيصرفونهم عنها، وذلك بسبب ما يُبدونه مِن تشكيكٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 607.
(2) القنُّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.

بالنُّبوَّة[1]. فاستعملوا أيمانَهم الكاذبةَ كستارٍ ليقوموا بهذا الدَّور الهدّام في الصَّدِّ عن سبيل الحقِّ.

والصَّدُّ مِن معانيه الانصرافُ عن الشَّيء، وهم انصرفوا عن الإيمان بالله وبرسوله؛ وجاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي للدّلالة على تَحَقُّقِ ذلك المسلك، وهو الصَّدُّ عَن سبيل الله.

فائدةُ تعدية الفعل ﴿فَصَدُّواْ﴾ بـ﴿عَن﴾:

عدّى النَّظمُ الجليلُ فِعلَ الصَّدِّ بحرف الجرِّ ﴿عَن﴾ الدّالِّ على المجاوزة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ للدِّلالةِ على إبعادهم النّاس عن الإيمان بالله بسبب ما يصدر منهم من التَّشكيك والقدح في النُّبوَّة.

نُكتةُ حَذفِ مُتعلَّق فِعل الصَّدِّ:

حَذَفَ النَّظمُ الجليل مُتَعلَّق فعل الصَّدِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فَلَمْ يَذكُر مَن الَّذي وقَعَ عليه الصَّدُّ؛ وذلك للدِّلالة على التَّعميم والإطلاق؛ فالمنافقون لم يصدّوا فِئةً مُعَيَّنَةً مِن النّاس، بل سَعَوا لِصَدِّ كُلِّ النّاس، المسلمين والكافرين، وكُلِّ مَن بدا له الحقُّ ورَغِب فيه، وفي هذا دلالةٌ على قُبح سلوك هؤلاء؛ فَلَم يكتفوا بنفاقهم، بَلْ أرادوا تعديَتَه للآخَرين.

غايةُ المنافقين شمولُ الصَّدِّ وعمومُه لِكُلِّ أحَدٍ

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ السَّبيلِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو الطَّريقُ السَّهلُ الواضح[2]. وأوثر استعمالُه دون لفظ (الطَّريق) لِما في الطَّريق من معنى الصُّعوبة بخلاف يُسر (السَّبيل)؛ ولهذا يغلِبُ استعمالُ (السَّبيل) في الخير.

الدّينُ طريقُ الهُدى وسبيلُ النَّجاة

واستُعير هنا تعبيرًا عن الدّين القويم الَّذي ارتضاه لعباده، كما

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.
(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).

صرَّحَ به في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3][1]. فَشُبِّهَ الدّينُ بالطَّريقِ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، حيث صُرِّحَ بلفظ المشبَّهِ به (السَّبيل) وحُذف المشبَّهُ (الدّين)، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الدّينَ هو مَنهَجُ حياةٍ وطريقٍ يسلُكُه الإنسانُ للوصول إلى مرضاة اللّه والفوزِ في الآخرة.

ومِن بلاغة هذه الاستعارة اشتمالُها على تشبيه المنافقين الَّذين يمنعون النّاس عن الإيمان باللّه وعمل الصّالحات بِمَن يَصُدُّ النّاس بقوَّةٍ ويَضَعُ أمامهم العراقيل في طريق سَيرِهم إلى المقصود الَّذي يوصلهم إلى الإيمان.

دلالةُ إضافة السَّبيلِ إلى لفظ اسم الجلالة:

تعظيمُ المنهج وتهويلُ الجُرمِ بالصَّدِّ عَنه

أضاف النَّظمُ الجليلُ لَفظَ السَّبيل إلى اسم الجلالة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ تعظيمًا لشأنِ السَّبيلِ بنسبتِهِ للّه تعالى، وهذا يَؤول إلى التَّشنيع على المنافقين، والتَّصريح بِعِظَمِ جُرمِهم؛ فَهُم يَصُدّون النّاس عن السَّبيل الذي تَشَرَّفَ بالانتساب إلى اللّه تعالى، وهو منهجٌ قويمٌ فيه سعادةُ الدّارَين.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ عَمّا سَبَقَ لأنّها مُستأنفةٌ، سيقت تذييلًا لِما سَبَقَ مِن القول، لتفظيع حال المنافقين عند السّامع[2].

نُكتةُ تَتابُعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تقريرُ قُبحِ النِّفاق، والتَّأكيدُ على سوءِ أفعالهم

أكَّدَ النَّظمُ الجليل الجُملَةَ في قَوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك لتأكيد قُبحِ أعمال المنافقين، ولِتثبيت حَقيقةِ سوء أفعالهم، ولِأنَّهم كانوا مُعجَبين بِحالهم، فجاء التَّأكيدُ القاطِعُ إبطالًا

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 717.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.

لذلك[1]، وإنكارًا على ما اعتقدوه مِن أنَّهم يُحسِنون بفعلهم ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: 11 - 12].[2]

دلالةُ التَّعبير بـ﴿سَآءَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

أفعالُ المنافقين قَبيحَةٌ مَذمومَةٌ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بالفعل ﴿سَآءَ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهو فِعلٌ دالٌّ على الذَّمِّ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، وتقديرُه: ساء العَمَلُ ما كانوا يعملون، أو: ساء ما كانوا يعملون عَمَلُهم، وذلك لتقبيح أعمالهم؛ أي: بئسَ تلك الأعمالُ القبيحةُ الَّتي يأتونها، مِن نفاقهم وأيمانهم الكاذبة، وصَدِّهم النّاس عن الإيمان[3].

والملاحَظُ في السّياقِ القرآنيِّ وصفُ أعمال المنافقين بالسّوءِ دون أعمال الكافرين، في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز، هنا: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وفي سورة المجادلة (15)، وفي سورة التَّوبة (9)؛ وذلك لِما اختَصَّ به المنافقون مِنَ الأيمان الكاذبة التي جعلوها سُترَةً لأموالهم ودمائهم حتَّى لا يستبيحها المسلمون.[4]

دلالةُ تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفِعليّ:

تأكيدُ اتّصافِ المنافقينَ بالسّوءِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليل المُسنَدَ إليه، وهو ضمير الغائبين (هم)، على المُسنَد الفِعليِّ، وهو الفعل ﴿سَآءَ﴾، في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: (ساءَ ما كانوا يعملون) مباشرةً؛ وذلك لتأكيد اتّصافهم بسوء الأفعال، ورسوخ هذا الوصف فيهم. ويوَجِّهُ التَّقديمُ الاهتمامَ إلى ذات المنافقين، ليُقرِّرَ حُكم السّوء عليهم مباشرة. وهذا أبلَغُ في وصفِهم بالسّوء.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 78.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 78.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 717.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 230.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قَوله ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

تقبيحُ أعمال المنافقين على وجه الشُّمول

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بـ﴿مَا﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وهي هنا نَكِرةٌ موصوفةٌ بمعنى (شيئًا)، والجملةُ الفعليَّةُ بعدها صفتُها، والرّابط محذوفٌ، والتَّقدير: (ساء الشَّيءُ شيئًا كانوا يعملونه)[1]. ويجوز أن تكون موصولةً، والجُملة الفعليَّةُ بعدها صِلَةٌ، أي: (بئس الَّذي كانوا يعملونه)، وهذا المعنى يُفيدُ الشُّمول، فيشمل كُلَّ الأقوال والأفعال الَّتي كانوا يقومون بها مِن نفاقٍ وصَدٍّ عن سبيل الله واتِّخاذ الأيمانِ جُنَّةً وغيرِها[2]. وفي هذا دلالةٌ على أنَّه لا يصدر مِن المنافقين إلّا العملُ السَّيِّئُ، وفي هذا مزيدُ تبكيتٍ وتوبيخٍ لَهُم.

دلالةُ التَّعبير بقوله ﴿كَانُواْ﴾:

سوءُ العمل وقُبحُه طَبعُ المنافقين

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بِفِعلِ الكَون في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وذلك للدِّلالة على الاستمراريَّة والتَّكرار، فالسّوء الَّذي يقوم به المنافقون ليس عارضًا أو مُؤَقَّتًا، بل هو دائِمٌ ومستمِرٌّ ومتكرِّرٌ. وهذا يدُلُّ على أنّ هذه الأعمال السَّيِّئَة قد أصبَحَت صِفَةً راسخةً فيهم، وجُزءًا لا يَتَجَزَّأُ مِن سلوكهم.

دلالةُ التَّعبير بـ(العمل) مادَّةً وصيغَةً:

الاستمرارُ على السّوء مع القصدِ وسوء النّيّة

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعمل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لأنَّه يَدُلُّ على ما فُعِل بقَصدٍ[3]، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم فَعَلوا ذلك بقَصدٍ وإصرارٍ وسوءِ نيَّةٍ، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع للدِّلالة على استمرارهم بِفِعلِ ذلك وتَجَدُّدِ إساءتهم[4].

وَوَقَعَ الوصفُ بالسّوء على (الأعمال) دون (الأقوال)؛ لأنَّ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 717.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 86.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 78.

الأعمال هي الَّتي تَظهرُ على مَحكِّها الأقوال؛ أمّا الأقوالُ فما أكثَرَ ما تُخالفُها الأعمال؛ فقد يكون القولُ في ظاهِرِه حَسَناً جَميلاً على حين يكون العمل مِن ورائِه سَيِّئاً خبيثاً، وإنَّه لن يكون عملٌ طيِّبٌ إلّا وكان مَعَه القولُ الطَّيِّبُ؛ لأنَّ القولَ أخَفُّ مُؤنَةً مِن العَمَل، ولهذا كانت الأعمالُ هي مناطَ الحساب والجزاء.[1]

دلالةُ حَذفِ مفعول ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِف مفعولُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لإفادة العموم؛ فَكُلُّ ما يصدر عنهم هو عملٌ سَيِّئٌ مع أنفُسِهم أو مع غيرهم.

نُكتةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

سببُ سوء أعمالِ المنافقين رسوخُ الكُفرِ في نُفوسِهم

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا؛ فقد سيقت لتعليل مضمون قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، أي إنّ سبب جُرأتِهم على المعاصي والنِّفاق هو استخفافُهم بالأيمان وارتدادُهم عن الإيمان، فَلَمّا رَسَخَ الكُفرُ في نفوسهم تَجَرَّأت أنفُسُهم على الجرائم، فَطُبِعَ عليها فلا يخلُصُ إليها الخير[2].

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ما أقبَحَ النِّفاق وأبعَدَه في منازِلِ الشَّرِّ والسّوء

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالِّ على البُعد في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ مُشيرًا إلى نِفاقهم وصَدِّهم عن سبيل الله، واتّخاذهم الأيمانَ جُنَّةً، أو مُشيرًا إلى عُمومِ سوء أعمالهم مِمّا ذُكِرَ في قوله: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. وقد جيء به بصيغة البُعدِ للدِّلالة على بُعدِ المذكورات في

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 10/ 958.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 237.

منازل السّوء والشَّرِّ[1]، خاصّةً؛ لأنَّه لَمّا كان الكفرُ مستبعداً، فَكَيف به بعد الإقرار ؟.

دلالةُ الباء في قولِه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

سَبَبُ ذَمِّ المُنافقين تَذَبذُبُهم بين الإيمان والكفر

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ وهو هنا بمعنى السَّبَبيَّة، فَسَبَبُ ذَمِّهم ونِسبَتِهم إلى الشَّرِّ وجُرأتهم على اللّه أنَّهم آمنوا ثُمَّ تَرَكوا الإيمانَ وارتَدّوا إلى الكفر واستبدلوا الضَّلالَ بالهُدى[2].

دلالةُ تأكيد جُملةِ ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾:

أكَّدَ النَّظمُ الجَليلُ الجُملَةَ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ وذلك لتأكيدِ تَحَقُّقِ إيمانهم قَبْلَ كُفرِهم، وهذا يُشير إلى عِظم جُرمِ كُفرِهم، فَهُم قَد عَرَفوا الحَقَّ ثُمَّ أعرَضوا عنه؛ لِمَرَضٍ في قُلوبِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

تَحَقُّقُ الإيمانِ يُظهِرُ عِظَمَ جِنايةِ النِّفاق

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عَن إيمانِهم بالفِعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؛ لتأكيدِ تَحَقُّقِ إيمانهم، فَهُم قد نَطَقوا بكلمة الشَّهادة كسائر المسلمين[3].

وفي بيانِ طبيعةِ تَحَقُّقِ إيمانِهم هذا - مع أنَّ المنافقين لم يكونوا إلّا على الكفر الثّابت - عِدَّةُ أوجُهٍ:

أوَّلُها: أنَّ المراد بقوله ﴿ءَامَنُواْ﴾: نَطَقوا بكلمة الشَّهادة وفعلوا كما يفعل مَن يَدخُل في الإسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾: أي ظهر كفرهم بعد ذلك. **وثانيها**: أنَّ المراد به: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثُمَّ نَطَقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. **وثالثُها**: أنَّ المرادَ أهلُ الرِّدَّة منهم؛ فالمنافق قبل أن يُنافق يُمكن أن يَكون قَد آمن ثُمَّ كفر.[4]

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 330.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

النِّفاقُ بإظهار الإيمان أشدُّ شناعةً مِن الكفر الصَّريح

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بِحَرفِ العَطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ وهي هُنا لِلتَّراخي الرُّتَبِيِّ؛ فإنَّ الكُفرَ أرسخُ فيهم مِن إيمانهم الظّاهِريِّ، ويجوز أن يراد بها التَّراخي الزَّمانيُّ، فَقَد كَفَروا بَعدَ مُهلَةٍ[1]. وهذا يَدُلُّ على تَعَمُّدِهم الضَّلال والكُفرَ والنِّفاق حَتَّى يَفتِنوا المؤمنين في إيمانهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعل الماضي ﴿كَفَرُوا۟﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الكريم عن الكفر بالفعل الماضي في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾؛ لتأكيدِ تَحَقُّقِ كُفرِهم، فهو كُفرٌ ظاهِرٌ مُحَقَّقٌ مُشاهَدٌ، قد بانت دلائلُه[2]. فهو راسِخٌ في قلوبهم، ظاهِرٌ في سلوكهم.

نُكتةُ حَذفِ مُتَعلَّق الكفر:

شناعةُ الكُفر بِكُلِّ واجبات الإيمان

حَذَفَ النَّظمُ الجَليلُ مُتَعَلَّقَ الكُفرِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾؛ وذلك للدِّلالة على شمول كفرهم لِكُلِّ ما يجب الإيمان به، فهو حَذفٌ بليغٌ يَدُلُّ مع الإيجاز على عِظَمِ الكُفر وأصالتِه فيهم، فَقَد جَحَدوا بِكُلِّ أركان الإيمان.

بلاغةُ الطِّباق بين الإيمان والكفر:

مفارقةٌ بَيِّنَةٌ تَفضَحُ تَذبذُبَ المنافقين

جَمَعَ النَّظمُ الجليل بين لفظَي الإيمانِ والكُفرِ في جُمَلةٍ واحدةٍ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ للطِّباق بينهما، وهذا يُظهِرُ التَّناقُضَ الشَّديدَ في حال المنافقين، ويُبَيِّنُ تَقَلُّبَهم الوشيك بين الإيمان والكفر، تقبيحًا لِفعلِهم وجنايتهم.

دلالةُ الفاء في قوله ﴿فَطُبِعَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفاء في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 237.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.

وهي هنا دالَّةٌ على السَّبَبيَّة، أي إنَّ الطَّبعَ على قلوبهم كان بسبب ما تَقَدَّمَ مِن تَقَلُّبِهم مِن الإيمان إلى الكفر، وإظهارِ نِفاقِهم[1]. فالفاءُ تربط بين أفعال المنافقين الشَّنيعة مِن الكفر بعد الإيمان، والصَّدِّ عن الحقِّ وما نَتَجَ عنها وترتَّبَ عليها مِن الطَّبع على القلوب.

الـطَّـبـعُ عـلى القلوب نَتيجةٌ لأعمال المنافقين

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَطُبِعَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعل ﴿فَطُبِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ ما خُلِق في قلوبهم وقَرَّ فيها مِن الرَّيب والشَّكِّ لا يزول حتّى يُلاقوا مصيرَهم إلى النّار[2]؛ لأنَّ توبة المنافقين تكادُ تكون منعدمةً، وعُبِّر بالطَّبع دون الخَتم لأنَّ الطَّبعَ أشَدُّ مِن الخَتم، فالخَتمُ بدايةُ الطَّبع، والطَّبعُ إغلاقٌ تامٌّ مُحكَمٌ، وهو يشير إلى أنَّ قلوبَهم بَلَغت مَبلغًا مِن العناد والزَّيغ لا تنال الهدى بعده[3]؛ كما أنَّ صيغة الفعل المبنيِّ للمفعولِ تَدُلُّ على تعظيم الطَّبعِ والاهتمامِ به لا بالنَّظَر لكونه مِن مُعَيَّنٍ. مع أنّه مِن المعلوم أنَّ اللّه وحْدَه يقدِرُ على ذلك[4].

غـلْـقٌ مُـحـكَـمٌ وعُقوبَةٌ لا تُفَكُّ

بلاغةُ المجاز في الطّبع على القلوب:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالطَّبع على القلوب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ استعارةً للبَلادةِ وعدم الفهم، وهما مِن أسباب منع العلم والفقه، فشبَّهَ قلوبَ المنافقين الَّتي لا يدخلها الإيمانُ بالأوعية المختومة الَّتي لا يدخلها شيء، وذلك جزاءً على كذبهم ونفاقهم[5].

الـطَّـبـعُ على القلوب بمعنى فـقـدان آلـيّـة الفقه

نُكتةُ تعديةِ فِعلِ الطَّبعِ بحَرفِ الاستعلاء:

عُدّيَ فِعلُ الطَّبعِ في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحرف

شِـدَّةُ إغـلاق قـلوب المنافقين عن قَبولِ الحَقِّ

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن النَّريّ الجامع: 28/ 87.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 312.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النَّريّ الجامع: 28/ 87.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 79.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 718.

الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء، وذلك للدِّلالة على أنَّ الطَّبع مُتَمَكِّنٌ مِن قلوبهم، مستولٍ وجاثمٌ عليها، مُحيطٌ بها مِن كُلِّ جانب، لا يَدَعُ لها منفذًا لِفَهمٍ أو هدايةٍ. وهو تصويرٌ بليغٌ لانغلاق قلوبهم التّامِّ عن الحَقِّ.

دِلالةُ الفاء في قوله ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الفاء في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وهي هنا للتّفريع، ففرَّعت انتفاء الفقه عنهم على ما قبلها، فإنَّ عَدَم الفقه نتيجةٌ حتميَّةٌ لطبع قلوبهم. فبَعدَ أن خُتم عليها جزاءً على نفاقهم وتقلُّبهم، ترتَّب على ذلك انعدامُ بصيرتهم وزوالُ إدراكهم للحقائق، فغشاوةُ الطَّبع صارت حاجزًا يمنعهم مِن الفهم والهداية[1] ويجوز أن تكون الفاءُ في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾، فصار كُفرُهم بعد الإيمان سببًا في سوء أعمالهم بمقتضى فاء السَّببيَّة، وسببًا في انتفاء إدراكهم الحقائقَ النَّظريَّةَ بمقتضى فاء التَّفريع.[2]

حِرمانُ الفَهم والعلم مُترتِّبٌ على عقوبة الطَّبعِ

نُكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قدَّمَ النَّظمُ الجليل المُسندَ إليه وهو الضَّميرُ المنفصلُ (هم) على المسندِ وهو الفِعلُ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾؛ لِتأكيدِ انتفاء الفَهمِ عنهم، وتقويةً لمضمون الخطاب[3].

انتفاءُ الفهم والفقه صفةٌ مُؤَكَّدةٌ في المنافقين

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفقه في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ دون (لا يعقلون)؛ إذ الفقهُ يَدُلُّ على العلم بالشَّيء والفَهم له[4]، بخلافِ العَقلِ الَّذي يُقالُ للقوَّةِ المتهيِّئة لقَبول العلم؛ وعلى ذلك

انطفاءُ الفَهم الباطِنِ والإدراكِ السَّليمِ للحقائق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 87.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).

فالفقه أعلى درجةً، لأنَّه يُراد به فهمُ الحقائقِ الخَفيَّة. والمعنى: إنَّهم لا يُدرِكون دلائلَ الإيمان، فلذا هم لا يعلمون حقيقته[1]. ونفيُه هنا يُشير إلى عَمًى قلبيٍّ، فَهُم لا يُمَيِّزون بين الحقِّ والباطل. فهو نفيٌ عن المنافقين إعمالَ العقل فضلًا عن الفقه؛ فإنَّ المنافقين يَظُنّون بتستُّرِهم وإخفاءِ ما يُضمرون للمسلمين أنَّهم في مأمنٍ؛ فجاء التَّعبيرُ بنفي الفقه من باب التَّعريض بهم، ولذلك جاء بصيغة المضارع المنفيِّ ليَدُلَّ على الاستمرار والثُّبوت، فهم في حالةٍ دائمةٍ من التّيه والضَّلال.

نُكتةُ حَذفِ مفعول ﴿يَفْقَهُونَ﴾:

خلوُّ عُقولِ المنافقين مِن كُلِّ فَهْمٍ

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ مفعولَ الفقهِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وذلك لِما في الحَذفِ من دلالةٍ على التَّعميم، فَهُم لا يفقهون حقيقَةَ الإيمانِ، ولا فوائدَه عليهم وضرورتَه في حياتهم[2]. فكأنَّ فِقْهَهم قد سُلب جملةً، فلا عقولَ تَهتدي، ولا قلوبَ تعي.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّهادة والعِلم:

الشّهادة أخصّ من العلم فهي العلم بما شوهد دون ما غاب

الشَّهادَةُ أَخَصُّ من العِلم؛ لأنَّ الشَّهادة عِلمٌ يتناول المُشاهَد، والعِلمُ يتَناوَلُ المُشاهَد والغائِبَ[3]. فالَّذي يشهَدُ يعلَمُ، لأنَّه حاضِرٌ ويَعلَمُ ما يَحدُثُ، والَّذي يَعلَم ليس بالضَّرورة أن يكون شاهدًا، فهو يَعلَمُ بدون حضورٍ، بأن يُخبِرَه غيره[4]. وعَبَّر في الآية بلفظ المشاهدة للدِّلالة على تأكيدِ العِلم، هذا من جهة المعنى، كما لا يخفى ما يُضفيه لفظ ﴿يَشْهَدُ﴾ من جمالٍ ذوقيٍّ في مُجانسة ﴿نَشْهَدُ﴾، وبيان عظيم الفَرقِ بين الشَّهادتين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 95 - 96.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 85.

العمل والفعل والصُّنع:

العمل أعمّ من الصُّنع، وأخصّ من الفعل

الفِعْلُ: التَّأثيرُ مِن جهة مُؤَثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غير إجادةٍ، ولِما كان بِعلمٍ أو بغير عِلمٍ، وقَصدٍ أو غير قَصدٍ، ولِما كان مِن الإنسانِ والحيوانِ والجمادات[1]. أمّا العَمَلُ فهو كُلُّ فِعلٍ بِقَصدٍ، فهو أخصُّ مِن الفِعلِ[2]. أمّا الصُّنعُ فهو ترتيبُ العمل وإحكامُه، وتقدُّم العلم به وبما يوصِل إلى المراد منه، ولذلك قيل للنَّجّار صانِعٌ، ولا يقالُ للتّاجر صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلمُه بما يريد عَمَلَه مِن سريرٍ أو باب، ويَعلَمُ الأسبابَ الَّتي توصِل إلى ذلك، والتّاجِر لا يعلم إذا اتَّجر أنَّه يَصِل إلى ما يريده مِن الرِّبح، وفي الصُّنع جودةٌ وحذقٌ[3]، فهو أخصُّ مِن العمل، فلا يقال إلّا لِما كان مِن الإنسان بِقَصدٍ واختيار، وبعدَ فِكرٍ وتحرٍّ. وقد عبَّرَ في الآية الكريمة بالعمل لأنّ العمل يشمل أعمال القلوب وغيرها، ولأنّه يدُلُّ على ما عُمِلَ بِقَصدٍ.

الطَّبع والخَتم:

الطَّبعُ إغلاقٌ ثابِتٌ، والخَتمُ يحتمل الزَّوال

الطَّبْعُ أثَرٌ يثبُتُ في المطبوع ويلازمُه، فيُفيدُ مِن معنى الثَّباتِ واللُّزوم ما لا يفيدهُ الخَتْم، ولهذا قيل طُبِعَ الدِّرْهَمُ طبعًا، وهو أثَرٌ لا يَزول عَنهُ، وطبعُ الإنسان ثابتٌ غيرُ زائِلٍ[4]. فالطَّبعُ أشَدُّ مِن الخَتم؛ وذلك لأنَّه لا يُفَكُّ، أمّا الخَتمُ فقد يُفَكُّ[5]. فعَبَّرَ في الآية بالطَّبع لأنَّ قلوبَهم قد خُتِم عليها للأبد، فلا يتطرَّقُ إليها سبيلُ الهُدى.

ومِن الفروق بينهما أنَّ الطَّبع علامةٌ للمنافقين والأقوام السابقة الَّتي أعرضت عن الهدى وتولَّت عن النَّظر في الدَّلائل الواضحة الَّتي تدعوهم إلى الإيمان؛ بخلاف الخَتم فإنَّه يَرِد غالبًا في جانب

(1) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 135 - 136.
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 73.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ الجامع: 28/ 87.

الكُفّار، ومعلومٌ أنَّ المنافقين أشدُّ ضرراً مِن الكُفّار، وآيات القرآن في إسناد الطَّبع إلى المنافقين كثيرةٌ وظاهرةٌ.

(لا يعقلون) و(لا يفقهون):

الفِقْهُ: العِلْمُ بِالشَّيءِ والفهمُ لَهُ[1]. وهو التَّوَصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فَهو أَخَصُّ مِن العِلم[2]، الَّذي هو وصولٌ إلى حقيقةِ باطِنِ الشَّيءِ، كالعِلمِ بالشَّيءِ وفهمِه فهمًا عميقًا مستوعبًا، وقد فَقِه الشَّيءَ كَأنَّما غاص في داخله فأدرك دقائقه وخفاياه[3]. أمّا العقلُ فأصْلُه مِن الحَبسِ، يقال: عَقَلتُ البعيرَ أعقِلُه عَقلًا: قيَّدتُه بما يحبِسُه عن الانبعاث. وسمّيَ عقلُ الإنسان لأنَّه يمنَعُه ويحبِسُه عن محذوراتٍ[4]. والعَقْلُ يُقال للقوَّةِ المتهيِّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الَّذي يستفيده الإنسانُ بتلك القوّة عَقْلٌ[5]. وقد عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الفقه للدِّلالة على أنَّهم لا يُدركون دلائل الإيمان العميقة، فلذا هم لا يعلمون حقيقته[6].

الفقهُ تَوَصُّلٌ للعلم وإدراكٌ له، والعقلُ قيدٌ للعلم والانتفاعِ به

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(2) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقل).
(5) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"